وقفات مع اعتداءات 11 مارس الإسبانية

17-3-2004
amirsaid@gawab.com

فالمسألة لابد أن تتجاوز لدى الساسة والحزبيين مجرد الشجب لبحث آلية تباعد بين سياستهم وإملاءات الولايات المتحدة وتحفظ لسياستهم الاستقلالية، في وقت يكتسب المهاجمون أراض جديدة مع كل تحرك دموي، فتارة يقلبون نظاما مناوئا، وتارة يفرضون على عدوهم سياسة معينة، وتارة يمارسون ضده حرب استنزاف. نعم الأمر يحتاج لقدر كبير من الشفافية

بقلم أمير سعيد

تبدو أحداث 11 مارس بمدريد كما لو أنها ستدخل ذات النفق الذي دخلته أحداث 11 سبتمبر بنيويورك ..
ليست مدريد كنيويورك، ولم تستهدف التفجيرات الإسبانية أي رمز سياسي أو اقتصادي أو عسكري كما فعلت أو حاولت هجمات نيويورك، بيد أن الحدث يظل داخل دائرة الضوء لفترة ليست بالقصيرة، كأكبر عملية تفجيرية تستهدف المئات الذين سقطوا بين قتيل وجريح، وكانت لها تداعياتها المحلية والقارية والدولية .. فتحت أكثر من ملف وأثارت أكثر من قضية، واستدعت أكثر من وقفة:
* فمن أبلغ ما خلفته تفجيرات مدريد، هي تلك التظاهرات الحاشدة التي جابت مدن إسبانيا بلا استثناء .. التي تجسد تلك القيمة البارزة التي توليها أوروبا لإنسانها "السامي" .. الإنسان كجسد في الحقيقة لا كروح؛ إذ الروح ديست تحت أقدام المادة منذ قرون.
حقيقة اعترتنا دهشة مفرطة؛ والصورة تكشف أمامنا عن 12 مليونا، يشكلون ربع سكان إسبانيا، خرجوا من ديارهم وأعمالهم في يوم ممطر؛ إعلاء لقيمة 200 شخص لقوا حتفهم في تلك التفجيرات، واحتجاجا على الطريقة التي أزهقت بها هذه أرواحهم.
صحيح أن هذه التفجيرات بتلك القسوة، وإذ تأتي بغتة، قد امتازت بشناعتها وفداحتها؛ إلا أن ذلك لا يقلل من الاعجاب بهذا التفاعل الشعبي العارم في إسبانيا. (أكثر من ألف مصري قضوا متفحمين في حادثة قطار الصعيد الشهيرة قبل سنوات نتيجة الإهمال والتسيب في أمن القطارات الذي لا يقل توحشا وضراوة عن "الإرهاب"، ومرت الحادثة بـ"سلام" كما لو كان القتلى من جند إبليس !!).
في مقابل ذلك؛ فإن المرء إذا أرجع بصره إلى عالمنا العربي المسكين انقلب إليه البصر خاسئا وهو حسير، فالقيمة الإنسانية للشخص العربي في نظر حكامه أمست دون قيمة البهائم في غير ما بلد عربي ـ أعز الله قراءنا ـ (دفعت إحدى الوزارات"مشكورة" في دولة عربية تعويضا لحادث نتيجة الإهمال في وفاة أبرياء ما قيمته لا تتجاوز ثمانية دولارات لكل متوفي، وهو ما يعادل تقريبا ربع قيمة الحمار العربي الأصيل !!) , وبعيدا عن المادة، وأعلى منها بكثير تظل الحرية في الدول العربية رجسا من عمل الشيطان !! فحتى حرية النواح ـ التي كانت مكفولة في الجاهلية الأولى ـ على القتلى، والنفرة غضبا لإزهاق الأرواح يحرم منها الفرد العربي لمجرد الخشية من أن يستحيل النواح على القتلى نياحة على الأمة العربية المهضومة، وضياع هيبتها، وتسلط الطغام الغطاريس عليها.
* بدا العنف، ويا لبؤس مناهضيه؛ يحقق أهدافا في أيام عجزت السياسة الهادئة ذات النفس الطويل عن تحقيق معشارها في سنوات، هذه حقيقة لا يمكن تجاهلها ووضع الرؤوس منها في الرمال بعد تفجيرات مدريد.. فالمسألة لابد أن تتجاوز لدى الساسة والحزبيين مجرد الشجب لبحث آلية تباعد بين سياستهم وإملاءات الولايات المتحدة وتحفظ لسياستهم الاستقلالية، في وقت يكتسب المهاجمون أراض جديدة مع كل تحرك دموي، فتارة يقلبون نظاما مناوئا، وتارة يفرضون على عدوهم سياسة معينة، وتارة يمارسون ضده حرب استنزاف. نعم الأمر يحتاج لقدر كبير من الشفافية لنضع مشاكلنا على طاولتنا ـ نحن ـ لنبحث في إستراتيجية تخلصنا من ربقة الخضوع للهيمنة الأمريكية الجديدة القادمة تحت عباءة الشرق الأوسط الكبير (العالم الإسلامي) من دون أن يكون العنف عنوان تحررنا ..
إنها معضلة لم تفلح سياسات الشجب في القفز عليها، وسجلتها الصحافة العالمية بكل حيثياتها، فقالت كاتبة مقال بصحيفة التايمز قبل ثلاثة أيام :"إنه كلما زادت دلائل ضلوع تنظيم القاعدة في هجمات مدريد كلما زاد إلحاح التساؤل عما إذا كانت الولايات المتحدة وحلفاؤها يخسرون حربهم ضد الإرهاب، وما إذا كانت الحرب على العراق قد أدت في الواقع إلى تفاقم الإرهاب". وتجيب الكاتبة بالقول: "إن الإجابة على كلا السؤالين هي قطعا بنعم... إن محاولات الغرب للدفاع عن نفسه ليست ناجحة تماما، لكن ذلك لا يعني أنها عقيمة".
وقد اضطربت الولايات المتحدة الأمريكية لما وجدت تحالفها ضد العراق يوشك أن يتزلزل بعد عزم إسبانيا على الرحيل من العراق (مرد هذا لا يعود في أساسه لكثرة جنود وقوات التحالف غير الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا في العراق، فتلك قوات لا تمارس الاحتلال، وإنما اضطرابها خشية أن تتزلزل أركان تحالفها من الناحية السياسية، فقد قال غير مفكر عربي قبل وإبان العدوان على العراق ما مفاده أن أمريكا لا تريد من حلفائها الحرب بدلا منها، وإنما تقديم الغطاء السياسي لها بحيث لا تبدو مستبدة تنطلق من أحلام "استعمارية" بغيضة، وهذا بدوره يتسق مع الفكر الموروث الذي قامت عليه الحروب الصليبية ذات الطبيعة التحالفية).

وهذا قد عبر عنه وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد حين رأى في التهديد بالانسحاب الإسباني من العراق على خلفية هجمات مدريد بمثابة "نكسة للولايات المتحدة الأمريكية"، طبقا لمقابلة أجرتها معه B.B.C أمس. وهو أيضا ما أثار الرئيس الأمريكي ذاته حين قال معلقا على أحدث استطلاع للرأي في هولندا يظهر رغبة أغلبية سكانها في رحيل قواته من العراق : "أطلب من الشعب الهولندي وبقية العالم التفكير في المواطنين العراقيين الذين لا يريدون من القوات الدولية الانسحاب؛ لأنهم يريدون أن يكونوا أحرارًا"، بحسب وكالة فرانس برس أمس، وهو كذلك ما أزعج ساسة البيت الأبيض بعد أن أعلن وزير الدفاع في دولة هندوراس 'فيدريكو بريف' أمس، أن حكومة بلاده قررت سحب قواتها العسكرية الموجودة بالعراق والبالغ قوامها 370 جنديًا يعملون تحت القيادة الأسبانية التي تعمل بدورها تحت القيادة البولندية في محافظات العراق الجنوبية والوسطى، لاسيما إذا أضفنا إلى ذلك الاستطلاع الإيطالي الذي نشرته صحيفة 'لاريبوبليكا' أمس، والذي أظهر أن ثلثي الإيطاليين يؤيدون سحب الوحدة الإيطالية من العراق بعد 30 يونيو المقبل، إذا لم تتسلم الأمم المتحدة زمام الأمور هناك، واستبعاد الرئيس البولندي ألكسندر كفاشنيفسكي إرسال قوات إضافية إلى العراق إذا ما قررت إسبانيا سحب قواتها منه.

* أظهرت تفجيرات مدريد كيف يسلب الظلم الأمن من أناس كانوا مطمئنين .. سواء أكانت إيتا مسئولة عن التفجيرات فقد أفرزتها رغبة الأسبان في الاستئثار بإقليم الباسك، أو كانت القاعدة، فقد عقبت صحيفة الموندو القريبة من الحكومة الإسبانية (12 مارس) على البيان المنسوب للقاعدة الذي وصف تفجيرات مدريد بأنها "جزء من تصفية حسابات قديمة مع إسبانيا الصليبية حليفة أمريكا في حربها ضد الإسلام"، بالقول : "إن كان هذا صحيحا، فسيكون في وسعنا القول إنه كان لدينا حتى الآن مشكلة مع ايتا، أما الآن فلدينا مشكلة ثانية مع القاعدة"، وهذا يقود إلى الاعتقاد بأن حل مشكلة العنف ليست بالهروب إليها اتقاء لها، بل برفع المظالم، فإسبانيا لم تواجه القاعدة حقيقة، لكنها أذاقت العراقيين مرارة الاحتلال وظلمه، فاستجلبت ما كان نساؤها وأطفالها ـ وهم أبرياء بلا شك ـ في غنى عنه. وتلك حقيقة تعود إليها التايمز وكاتبتها في المقال المشار إليه آنفا قائلة : "إنني لا أدعو للتشاؤم، لكن التفاؤل هنا يعتمد على عاملين: الأول تحقيق الاستقرار والديمقراطية في العراق (لكن) قدرات الولايات المتحدة لا تستطيع ضمان تحقيق ذلك، والثاني حل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني الذي لم تبد الإدارة الأمريكية أي حماس يذكر لحله"، وصدقت، فإن السلام والأمن قرينا العدل لا يتخلفان..

للعودة للأعلى